

«فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ» ١٥ ربيع الأول ١٤٤٣ هـ

عِبَادَ اللَّهِ: إِنَّ التَّعْلِيمَ مِنْ رَكَائِزِ بِنَاءِ الْأُمَّمِ، فِيهِ تُصَاغُ الْعُقُولُ، وَتُصَانُ السُّلُوكُ، وَعَلَيْهِ تَهْدَبُ الْأَخْلَاقُ، وَتُرَكَّى النُّفُوسُ. لَقَدْ كَانَ النَّاسُ قَبْلَ مَبْعَثِ النَّبِيِّ ﷺ بِلَا غَايَةَ وَلَا هَدَفٍ، أُمَّةٌ يَسُودُهَا الْجَهْلُ، وَتَعْلُوهَا الْخُرَافَةُ وَالْوَثْيَةُ، وَتَمَزَّقُهَا النَّعْرَاتُ وَالْحَمِيَّةُ، لَيْسَ لَهُمْ فِي الْوَاقِعِ أَثَرٌ وَلَا تَأْثِيرٌ، أَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ: «إِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، فَمَقَّتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ، إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ».

أَحْيَا اللَّهُ بِكَ أَرْوَاحًا قَدْ انْدَثَرَتْ فِي تَرْبَةِ الْوَهْمِ بَيْنَ الْكَأْسِ وَالصَّنَمِ

لَقَدْ تَخَرَّجَ مِنْ تَرْبِيَّتِهِ وَتَعْلِيمِهِ ﷺ خَيْرَ الْقُرُونِ، وَأَفْضَلُهَا، وَأَعْظَمَهَا مَنَزِلَةً عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، جِيلٌ عَظِيمٌ فَرِيدٌ، كَانَ مِنْهُمْ الْعَالِمُ النَّحْرِيُّ، وَالْمُجَاهِدُ الصَّنِيدِيُّ، وَالْعَابِدُ الْمُتَسِّكُ، وَالزَّاهِدُ الْوَرَعُ، حَتَّى غَدَا ذَلِكَ الْجِيلُ سَادَةَ الدُّنْيَا، وَقَادَةَ الْعَالَمِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: لَقَدْ أُعْطِيَ نَبِينَا ﷺ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، فَكَانَ يَقُولُ الْكَلِمَاتِ الْمَعْدُودَاتِ، فَيَقَعُ أَثَرُهَا فِي قُلُوبِ أَصْحَابِهِ مَوْقِعًا بَلِيغًا، حَتَّى تَغْطُرُ رُؤُوسُهُمْ، وَيُسْمَعُ لَهُمْ خَبِيرٌ مِنَ الْبُكَاءِ. فَيَا مَنْ أَرَادَ حُسْنَ التَّعْلِيمِ وَكَمَالَ التَّرْبِيَةِ أَقْبِلْ إِلَى وَاحَةِ الْمُصْطَفَى ﷺ؛ لِلنَّهْلِ مِنْ يَنْعَمَهَا الصَّافِي، وَيَنْبُوعِهَا الْعَذْبِ، فَخَيْرُ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ.

لَنْ تَهْتَدِيَ أُمَّةٌ فِي غَيْرِ مَنْهَجِهِ مَهْمَا ارْتَضَتْ مِنْ بَدِيعِ الرَّأْيِ وَالنُّظْمِ

إِنَّ الْمُتَمَّامَ لِهَدْيِ النَّبِيِّ ﷺ فِي التَّرْبِيَةِ وَالتَّعْلِيمِ لِيَلْحَظَ سِمَاتِ عَامَّةٍ، وَخَصَائِصَ أُسَاسِيَّةٍ فِي مَنْهَجِهِ ﷺ فِي التَّعْلِيمِ، مِنْ أَهَمِّ تِلْكَ السِّمَاتِ:

السِّمَةُ الْأُولَى: تَعْبِيدُ النَّاسِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ. وَهَذِهِ لُبُّ دَعْوَةِ الرُّسُلِ جَمِيعًا، فَكُلُّهُمْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾. فَمِنْ أَوْلَوِيَّاتِ التَّعْلِيمِ: أَنْ تُغْرَسَ الْعَقِيدَةُ الصَّحِيحَةُ فِي نَفُوسِ النَّاشِئَةِ، وَأَنْ يُرْبَطَ الطَّالِبُ فِي بَاكُورَةِ عُمُرِهِ بِرَبِّهِ تَعَالَى، مَحَبَّةً، وَرَجَاءً، وَإِجْلَالًا وَخَشْيَةً، وَتَوَكُّلاً. وَإِنْ غِيَابَ هَذِهِ السِّمَةِ مِنَ الْمَنَاهِجِ التَّعْلِيمِيَّةِ

والتَّربويَّةُ يُودِّي إلى اختلالِ المَوازِينِ، واختلالِ المَفاهِيمِ، وَذهابِ الفِضائلِ وَالقِيمِ.

السَّمةُ الثَّانيةُ: تَربِيَةُ النَّاسِ عَلَى تَصَحِيحِ النِّيَّاتِ، وَتَصْفِيَةِ المَقاصِدِ، خَاصَّةً إِذَا كَانَ هَذَا العِلْمُ مِنَ العُلُومِ الدِّينِيَّةِ. أَخْرَجَ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَهَ، وَصَحَّحَهُ العَلَّامَةُ الألبَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ، عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُتَبَغَى بِهِ وَجْهَ اللهِ ﷻ، لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا، لَمْ يَجِدْ عَرَفَ الجَنَّةَ يَوْمَ القِيَامَةِ» يَعْنِي: رِيحَهَا. أَمَّا العُلُومُ الدُّنْيَوِيَّةُ فَإِنَّ اسْتِحْضَارَ النِّيَّةِ الصَّالِحَةِ فِيهَا مِنْ سَدِّ حَوَائِجِ الأُمَّةِ سَبَبٌ لِحُصُولِ الأَجْرِ، مَعَ التَّوْفِيقِ وَالإِعَانَةِ.

السَّمةُ الثَّالثةُ: تَعْظِيمُ أَمْرِ اللهِ ﷻ، وَأَمْرِ رَسُولِهِ ﷺ، وَالمُبَادَرَةُ إِلَى الإِمْتِثَالِ. وَلَعَلَّنَا نَأْخُذُ مِثَالِينَ عَلَى ذَلِكَ مِنْ خَيْرِ مَنْ رَأَتْهُمُ الأَرْضُ بَعْدَ الأنبياءِ، وَهُمْ صَحَابَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ. وَهَذَا مِثَالٌ مِنْ حَالِ الرِّجَالِ فِي تَعْظِيمِ وَامْتِثَالِ أَمْرِ اللهِ ﷻ، أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ عَنِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ سَاقِي القَوْمِ يَوْمَ حُرْمَتِ الخَمْرِ فِي بَيْتِ أَبِي طَلْحَةَ، وَمَا شَرَابُهُمْ إِلَّا الفُضِيخُ: البُسْرُ وَالتَّمْرُ، فَإِذَا مُنَادٍ يُنَادِي، فَقَالَ: أَخْرُجْ فَانظُرْ، فَخَرَجْتُ، فَإِذَا مُنَادٍ يُنَادِي: أَلَا إِنَّ الخَمْرَ قَدْ حُرِّمَتْ، قَالَ: فَجَرَّتْ فِي سِكَكِ المَدِينَةِ، فَقَالَ لِي أَبُو طَلْحَةَ: أَخْرُجْ فَأَهْرِقْهَا، فَأَهْرِقْتُهَا، فَقَالُوا - أَوْ قَالَ بَعْضُهُمْ: قَتَلَ فُلَانٌ، قَتَلَ فُلَانٌ، وَهِيَ فِي بُطُونِهِمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعَمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

وَأَمَّا تَعْظِيمُ نِسَاءِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُنَّ لِأَمْرِ اللهِ وَرَسُولِهِ ﷺ، وَسُرْعَةُ امْتِثَالِهِنَّ لَهُ، فَقَدْ أَخْرَجَ البُخَارِيُّ وَأَبُو دَاوُدَ عَنِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: يَرْحَمُ اللهُ نِسَاءَ المَهَاجِرَاتِ الأُولَى، لَمَّا أَنْزَلَ اللهُ: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾، شَقَّقْنَ مُرُوطَهُنَّ فَاخْتَمَرْنَ بِهَا. وَأَخْرَجَ البَيْهَقِيُّ فِي «شُعَبِ الإِيمَانِ» عَنِ أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدِ الأَنْصَارِيَّةِ مِنْ بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، أَنَّهَا أَتَتْ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ بَيْنَ أَصْحَابِهِ، فَقَالَتْ: يَا أَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، إِنِّي وَافِدَةٌ النَّسَاءِ إِلَيْكَ، وَاعْلَمْ - نَفْسِي لَكَ الفِدَاءُ - أَمَا إِنَّهُ مَا مِنْ امْرَأَةٍ كَائِنَةٍ فِي شَرْقٍ وَلَا غَرْبٍ سَمِعَتْ بِمَخْرَجِي هَذَا أَوْ لَمْ تَسْمَعْ إِلَّا وَهِيَ عَلَى مِثْلِ رَأْيِي، إِنَّ اللهُ بَعَثَكَ بِالْحَقِّ إِلَى الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ فَأَمَّا بِكَ وَبِإِلاهِكَ الَّذِي أَرْسَلَكَ، وَإِنَّا مَعَشَرَ النِّسَاءِ مَحْضُورَاتٌ مَقْضُورَاتٌ، قَوَاعِدُ بُيُوتِكُمْ، وَمَقْضَى شَهَوَاتِكُمْ، وَحَامِلَاتُ أَوْلَادِكُمْ، وَإِنَّكُمْ مَعَاشِرَ الرِّجَالِ فَضَّلْتُمْ عَلَيْنَا بِالجُمُعَةِ وَالجَمَاعَاتِ، وَعِيَادَةِ المَرَضَى، وَشُهُودِ الجَنَائِزِ،

وَالْحَجَّ بَعْدَ الْحَجِّ، وَأَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ إِذَا أُخْرِجَ حَاجًّا أَوْ مُعْتَمِرًا وَمُرَابِطًا حَفِظْنَا لَكُمْ أَمْوَالَكُمْ، وَغَزَلْنَا لَكُمْ أَثْوَابًا، وَرَبَّيْنَا لَكُمْ أَوْلَادَكُمْ، فَمَا نُشَارِكُكُمْ فِي الْأَجْرِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: فَالْتَفَتَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى أَصْحَابِهِ بِوَجْهِهِ كُلِّهِ، ثُمَّ قَالَ: «هَلْ سَمِعْتُمْ مَقَالََةَ امْرَأَةٍ قَطُّ أَحْسَنَ مِنْ مَسْأَلَتِهَا فِي أَمْرِ دِينِهَا مِنْ هَذِهِ؟»، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا ظَنَّنَا أَنَّ امْرَأَةً تَهْتَدِي إِلَى مِثْلِ هَذَا، فَالْتَفَتَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهَا، ثُمَّ قَالَ لَهَا: «انصُرِي فِي أَيَّتِهَا الْمَرْأَةُ، وَأَعْلِمِي مَنْ خَلْفَكَ مِنَ النِّسَاءِ أَنَّ حُسْنَ تَبَعْلٍ إِحْدَاكُنَّ لِرُؤُوسِهَا، وَطَلَبَهَا مَرْضَاتِهِ، وَاتَّبَاعَهَا مُوَافَقَتَهُ تَعْدِلُ ذَلِكَ كُلُّهُ»، قَالَ: فَأَذْبَرَتِ الْمَرْأَةُ وَهِيَ تُهَلِّلُ وَتُكَبِّرُ اسْتِبْشَارًا.

لَقَدْ كَانَ نِسَاءُ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ مِنْ أَتَقَى النِّسَاءِ، وَأَرْجَحِهِنَّ عَقْلًا، وَكُنَّ فِي جِيلِ الصَّفْوَةِ وَالطُّهْرِ خَيْرِ الْقُرُونِ، وَمَعَ ذَلِكَ امْتَثَلْنَ أَمْرَ اللَّهِ تَعَالَى بِالْحِجَابِ، وَنَحْنُ فِي هَذَا الزَّمَنِ الَّذِي كَثُرَتْ فِيهِ الْفِتْنُ، وَكَثُرَ فِيهِ أَصْحَابُ الشَّهَوَاتِ تَخَلَّتْ بَعْضُ النِّسَاءِ عَنِ الْحِجَابِ، وَكَبَسْنَ مَا لَا يَلِيْقُ مِنَ الثِّيَابِ!! تَرَكَنَ هَدْيَ خَدِيجَةَ وَأُمِّ سَلَمَةَ وَعَائِشَةَ وَحَفْصَةَ، وَتَشَبَّهْنَ بِالْغَانِيَاتِ وَالسَّاقِطَاتِ. وَالْمَرْأَةُ الْعَاقِلَةُ لَا تَرْضَى لِنَفْسِهَا أَنْ تَكُونَ تَابِعَةً لِمَرْأَةٍ سَاقِطَةٍ، بَلْ تَعْتَزُّ وَتَفْخَرُ بِأَنَّهَا تَنْتَمِي لِمَدْرَسَةِ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَسَيِّدَاتِ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ أَجْمَعِينَ.

فَهُؤُلَاءِ هُمُ الْقَوْمُ، لَا يَمْلُ حَدِيثُهُمْ، وَلَا سَمَاعُ أَخْبَارِهِمْ، فَهُمْ النُّورُ لِلسَّالِكِينَ، وَهُمْ النُّجُومُ لِلسَّائِرِينَ، فِيهِمْ نَقْتَدِي، وَعَلَى دَرَبِهِمْ نَسِيرُ. فَهَلَّا دَرَسْنَا سِيرَهُمْ، وَقَرَأْنَا أَخْبَارَهُمْ، وَامْتَثَلْنَا امْتِثَالَهُمْ. وَكَمَا قَالَ الْفَرَزْدَقُ:

أَوْلَيْكَ آبَائِي فَجِئْنِي بِمِثْلِهِمْ إِذَا جَمَعْتَنَا يَا جَرِيرُ الْمَجَامِعُ

السِّمَةُ الرَّابِعَةُ: الْحَثُّ عَلَى تَعْلِيمِ النَّاسِ، وَنَشْرِ الْعِلْمِ وَبَدْلِهِ، وَتَوْسِيعِ دَائِرَةِ الْمُتَفَعِّلِينَ بِهِ. أَخْرَجَ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهَ، وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ، عَنْ عَدَدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، عَنِ النَّبِيِّ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «نَضَرَ اللَّهُ أَمْرًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا، ثُمَّ بَلَغَهَا، فَرُبَّ حَامِلٍ فِقْهِ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ».

وَأَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ، وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُمَا اللَّهُ، عَنْ أَبِي أَمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: ذَكَرَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلَانِ، أَحَدُهُمَا عَابِدٌ وَالْآخَرُ عَالِمٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ، وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ، حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا، وَحَتَّى الْحُوتَ، لِيُصَلُّونَ عَلَيَّ مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرِ».

السَّمَةُ الْخَامِسَةُ: صُحْبَةُ الْأَطْفَالِ، وَالْخُرُوجُ بِهِمْ، وَالْمَشْيُ مَعَهُمْ؛ لِتَلْقِينِهِمْ بَعْضَ خِصَالِ الْخَيْرِ، وَلِيَرَوْا كَيْفَ التَّعَامُلِ مَعَ النَّاسِ، كَمَا وَقَعَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ، وَأَبْنَاءِ ابْنِ عَمِّهِ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، وَأَنْسٍ، وَغَيْرِهِمْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْلَمُ بِذَلِكَ آبَاءَ الْأَطْفَالِ كَيْ يَصْحَبُوا أَوْلَادَهُمْ؛ لِتَهْدَبَ نُفُوسُهُمْ، وَيَقْوَى رِبَاطُ الصَّلَاةِ وَالْمَحَبَّةِ بَيْنَهُمْ.

السَّمَةُ السَّادِسَةُ: إِدْخَالُ السُّرُورِ عَلَى الْأَطْفَالِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ إِدْخَالَ السُّرُورِ عَلَيْهِمْ يُؤَثِّرُ فِيهِمْ تَأْثِيرًا طَيِّبًا؛ حَيْثُ يُخَفِّفُ الْعَنَاءَ، وَيَشْحَذُ هِمَمَهُمْ إِلَى مَا يُنَاطُ بِهِمْ مِنْ أَعْمَالٍ، وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيْرَ قُدْوَةٍ فِي ذَلِكَ، وَمِنْ أَسَالِيبِ إِدْخَالِ السُّرُورِ عَلَى الْأَطْفَالِ: مُدَاعَبَتُهُمْ وَإِضْحَاكُهُمْ، أَخْرَجَ الضِّيَاءُ فِي «الْمُخْتَارَةِ»، وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «الصَّحِيحَةِ»، عَنْ أَنْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَلَاعِبُ زَيْنَبَ بِنْتَ أُمِّ سَلَمَةَ وَيَقُولُ: «يَا زُوَيْنَبُ، يَا زُوَيْنَبُ».

عِبَادَ اللَّهِ: هَذِهِ بَعْضُ سِمَاتِ مَنْهَجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي التَّعْلِيمِ. قَالَ الْعَلَّامَةُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ نَاصِرٍ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُمَا اللَّهُ فِي كِتَابِهِ «الْفَوَاكِهُ الشَّهِيَّةِ فِي الْخُطْبِ الْمُنْبَرِيَّةِ»: لَقَدْ أَرَشَدَنَا رَبُّنَا إِلَى الطَّرِيقَةِ الْمَثَلَى فِي تَعْلِيمِ الْمُتَعَلِّمِينَ، بِأَنَّ نَسْلُكَ أَقْرَبَ طَرِيقٍ يُوَصِّلُ الْمَعَارِفَ إِلَى أَذْهَانِ الْمُشْتَغَلِينَ؛ فَلَا نَزْحَمَهَا بِكَثْرَةِ الْفُنُونِ؛ وَلَا يُلْقَى عَلَيْهِمْ مِنَ الْمَسَائِلِ مَا لَا يُطِيقُونَ، بَلْ يُلْقَى عَلَى كُلِّ أَحَدٍ مَا يَتَحَمَّلُهُ ذَهْنُهُ، وَمَا يَشْتَأِقُ إِلَيْهِ، وَلِيَكُنْ تَأْسِيسُكُمْ عَلَى عُلُومٍ نَافِعَةٍ صَحِيحَةٍ، وَمَعَارِفٍ قَوِيَّةٍ رَجِيحَةٍ؛ فَبِذَلِكَ تَصْلُحُ الْأَحْوَالُ، وَتَزْكُو الْأَعْمَالُ، وَتَصْلُحُ الْعَقَائِدُ وَالْأَخْلَاقُ، وَيَسِيرُ التَّعْلِيمُ إِلَى كُلِّ خَيْرٍ وَيَنْسَاقُ.